الفصل الثاني عشر
الإسلام والبيئة والعولمة

عناصر البيئة .. مخلوقة بقدر:

وإذا تأملنا البيئة من حولنا ومكوناتها، نجد أن كل شيء خلقه الله – سبحانه وتعالى – إنما خلقه بمقادير محددة وصفات معينة، بحيث تكفل هذه المقادير وتلك الصفات لكل مخلوق، القدرة على أداء دوره المحدد في مسيرة الحياة على الأرض، فيقول سبحانه وتعالي: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: ٤٩].

ويجيء التعبير "كل شيء" في الآية الكريمة ليدل على العموم، فما من شيء مهما كان حجمه أو مكانه، أو مهما كان نوعه. كائن حي أم جماد أم ظاهرة، إلا وقد خلق بقدر معلوم. و"كل شيء" تشمل الماء والهواء (بما يحتويه من غازات مختلفة بنسب محددة) والرياح والحيوانات والنباتات والجوامد من تراب ورمال وصخور وجبال وهضاب وغيرها. فهي تشمل كل شيء موجود في هذا الكون الفسيح، نراه أو لا نراه. فالميكروبات والبكتيريا والفيروسات وغيرها من المخلوقات متناهية الصغر، والتي لا ترى بالعين المجردة، إنما هي مخلوقة بقدر معين ومحدد لتؤدي دورًا ما في مسيرة الحياة على سطح الأرض.

ثم تأتي الآيتين الكريمتين: ﴿**قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾ [الطلاق: ٣] ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾ [الفرقان: ٢]، لتؤكدا أن كل شيء خلق بمقدار بحسب علمه سبحانه وتعالى. فهو وحده الذي يعلم أن هذا القدر هو الذي يكفل لأي مكون أو عنصر من عناصر البيئة أن يؤدي دوره المحدد، والمرسوم له في صنع الحياة واستمرارها في توافقية انسجامية غاية في الدقة.

فكل ما في الكون يخضع لدورات حيوية رسمها الخالق العظيم، حيث تتسم هذه الدورات بالدقة والاتزان والدورية. كما تجري الحياة في هذا الكون بصفة مستمرة من خلال سلسلة من عمليات ثلاث، وهي:

١- **التولد (الولادة):** وهي تتمثل في عمليات التكاثر والإنجاب، والتي تتميز بها جميع الكائنات الحية من حيوان ونبات، وقبلهما الإنسان.

٢- **الموت (التحلل):** وهي عملية تتمثل في موت الكائن الحي وتحلله، حيث يتحول إلى عناصر تمتصها الأرض وتذوب بين حبيباتها.

٣- **التحول:** وهي عملية يتم فيها تحويل العناصر والمواد إلى أشكال وأنماط أخرى يستفيد بها الإنسان في حياته، ويستخدمها لتحقيق طموحاته ورغباته وسد احتياجاته، من غذاء وكساء ومأوى.

فالحيوانات (بما فيها الإنسان) حين تموت، تتحلل أجسادها في التراب إلى عناصر، كما تقوم النباتات باستخلاص العناصر الغذائية من التراب لتحولها إلى أوراق وثمار وبذور يعتمد عليها الإنسان والطير والحيوان في غذائه. ومن المؤكد أن عمليات الموت والتحول والحياة (التولد)، إنما تتم وتستمر وفقاً لما قدره الله سبحانه وتعالى وتبعًا لمشيئته وحده.

وهكذا، نجد أن كل شيء مقدر من قبل الله، سبحانه وتعالى، بما في ذلك أقوات (أرزاق؛ بما فيها الطعام) الأحياء جميعها من إنسان وحيوان ونبات. ومما يؤكد تلك المعاني، قوله تعالى: ﴿**وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا**﴾ [فصلت: ١٠]. فهذه الآية، تؤكد أن أقوات الأحياء مكفولة بقدرة الله سبحانه وتعالى ما دامت الحياة، وإن لم يعمل الإنسان. فنجد المياه تجرى، والنباتات والثمار تنتشر، والحيوانات ترعى في أماكن لا يوجد بها أناس على الإطلاق.

وتؤكد الآيتان السابقتان: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾، ﴿**وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا**﴾، الدقة المتناهية في خلق كل العناصر والأشياء التي في هذا الكون الفسيح، فإذا راقبنا ما حولنا من عناصر وظواهر لأدركنا حقيقة هذه الآيات وصدقها. **ومن أمثلة ذلك**: الشمس، ذلك النجم الضخم هائل الحجم، والذي يمد الأرض بالحرارة والضوء اللازمان لاستقامة الحياة على سطحها واستمرارها. ولذلك، فلو تأملنا ذلك النجم من حيث الحجم، نجد أنه مخلوق بحجم معين وكتلة معينة تمكناه من القيام بدوره وتأدية وظيفته. فلو كانت الشمس ذات حجم أكبر أو كتلة أكبر، لكانت الحرارة الناتجة عنها والواصلة إلى الأرض أكبر، وأصبحت الحرارة شديدة، بالدرجة التي تؤدي

إلى احتراق كل ما على سطح الأرض من مخلوقات ومواد وعناصر. ويقال نفس الكلام إذا كانت الشمس أقرب إلى الأرض عما هي عليه حاليًا.

كذلك، لو كانت الشمس أصغر حجمًا مما هي عليه الآن، أو كانت أبعد مسافة عن الأرض مما هي عليه الآن، لساد الأرض جو من البرودة الشديدة التي تودي بحياة جميع الكائنات، ولاستحالت الحياة على سطح الأرض أيضًا. ويمكن كذلك القول أنه لو كانت دورة الأرض حول نفسها أو حول الشمس أسرع أو أبطأ عما هي عليه الآن، لتعذرت الحياة على سطح الأرض.

ويقال نفس الكلام إذا كان القمر أقرب إلى الأرض أو أكبر حجمًا مما هو عليه الآن، لارتفع المدّ الذي يحدثه في مياه المحيطات، بحيث يغمر اليابسة (الأرض) كل يوم مرتين. وبالتالي، تستحيل الحياة بكافة وأشكالها على الأرض.

وإذا تأملنا الجبال، فنجد أنها مخلوقة بقدر معين لتؤدي وظيفة محددة لها، وضحتها الآية الكريمة: ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ**﴾ [لقمان: ١٠]. فنجد أن الجبال بأحجامها وأماكن وجودها، تؤدي دورًا في حفظ الأرض واستقرارها، فهي تحافظ على توازن الأرض.

خطورة اختلال نسب عناصر البيئة:

خلق الله سبحانه وتعالى كل شيء بمقدار محسوبًا حسابًا دقيقًا. وليس أدل على دقة الخلق والتقدير المحكم لكل مكوّن من مكونات البيئة التي نعيش فيها، من أنه إذا ما حدث تغير واضح في أي عنصر من عناصر البيئة، سواء في خصائصه الكمية أو النوعية، فإن هذا الأمر يتسبب في حدوث العديد من المشكلات والأخطار بل والكوارث التي قد تؤدي بحياة الإنسان وجميع الكائنات الحية الأخرى؛ بل وربما تدمر العناصر المادية الأخرى الموجودة في البيئة. فعلى سبيل المثال، نجد أن غاز أول أكسيد الكربون، يوجد في الهواء الجوي بنسبة معينة ومحددة تبلغ (٠,٠٠٠٠١٪). وعلى الرغم من أن هذا الغاز هو غاز سام، إلا أن وجوده بهذه النسبة الضئيلة يجعله غير ضار

ولا يؤثر سلبًا على البيئة ومكوناتها. ولكن نتيجة نشاطات الإنسان المختلفة الصناعية وتقنياته الحديثة، وبخاصة السيارات ووسائل المواصلات، التي تبث كميات كبيرة من هذا الغاز حرق الوقود المستخدم في تسييرها، فقد زادت نسبة هذا الغاز في الهواء الجوي، ووصلت إلى تركيزات عالية، مما جعلت منه مصدر خطر كبير على الإنسان والبيئة بوجه عام.

وتتمثل خطورة هذا الغاز في أن قدرته على الاتحاد مع هيموجلوبيني الدم تفوق قدرة غاز الأكسجين بحوالي (٣٠٠) مرة، مما يجعل كمية الأكسجين التي تصل إلى خلايا الجسم والمخ غير كافية للقيام بالوظائف الحيوية، فيشعر الإنسان بالصداع والقلق والارتباك وضيق التنفس بل وإذا زادت النسبة عن حد معين فقد تسبب الغيبوبة والوفاة للإنسان.

كذلك، نجد أن غاز ثاني أكسيد الكربون يوجد في الهواء الجوي بنسبة محددة (٠,٠٣٢٪). فلو قلّت نسبة وجود ذلك الغاز عن نسبة وجوده المذكورة في الهواء الجوي والمقدرة من قبل الخالق العظيم، لانخفضت درجة الحرارة على الأرض إلى الدرجة التي تستحيل معها حياة الإنسان وجميع الكائنات الحية. كما أن هذا الغاز ضروري لقيام النباتات بعملية البناء الضوئي، والتي يتم فيها صنع غذاء النبات. فلو قلّت نسبة وجوده لحدث خلل في تأدية النباتات لوظيفتها المخلوقة من أجلها، والتي من خلالها توفر الغذاء للإنسان وللحيوان. كذلك، نجد أنه لو زادت نسبة هذا الغاز عن النسبة الطبيعية لوجوده في الهواء والتي قدرها الله سبحانه وتعالى، نجد أن درجة حرارة الغلاف الجوي ترتفع إلى الحد الذي قد يؤدي إلى انعدام الحياة أيضًا. وهكذا، نجد أن الله – سبحانه وتعالى – أوجد هذه البيئة بمعطيات ومكونات ذات مقادير محددة، وبصفات وخصائص معينة، فهي بيئة أحكم المولى عز وجل خلقها، وأتقن صنعها كمًا ونوعًا ووظيفة، ليتحقق ذلك قوله تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

فهذه الآية الكريمة تنسب الصنع لله، كما أنها تنسب له جل شأنه الإتقان. فإذا كان الصنع لله، فإنه وبلا شك صنع كامل يوصف بالكمال ولا يعتريه النقص أو القصور، فما بالك إذا أضيف لذلك لفظة "أتقن" فهي

تفيد تمام الصنع والكمال لكل شيء تفضل الله سبحانه وتعالى بخلقه وصنعه.

موقف الإسلام من العولمة:

الإسلام منهج عالمي جاء لهداية البشرية في كافة مجالات الحياة، وهو رسالة شاملة وعملية تراعي الظروف الإنسانية والظروف الموجودة بين الشعوب دون إلغاء للعالم من عاداتها وأفكارها، بل تطويره والارتقاء إلى المستوى السامي الذي جاء الإسلام ليرفع البشرية إليه. ولو كانت العولمة حسب دعواها الظاهرية وأنها تسعى إلى تقارب الشعوب على أساس التعاون والسلام وإقامة العدل والدفاع عن حقوق الإنسان وحرية العبادة والتعبير وغيرها من المقاصد الحسنة التي جاء بها الإسلام وتدعو إليه الفطرة السليمة لما كان هناك اختلاف من العولمة والإسلام. حيث أن الإسلام هو الرسالة السماوية الخاتمة إلى الناس جميعا، إن الإسلام يدعوا العالم إلى أن يكون أسرة واحدة تتبادل المنافع فيما بينها، ولو كانت العولمة كذلك فإنها لا تتعارض مع الإسلام والإسلام لكونه الرسالة الخاتمة ولكونه موجة للناس جميعا يدعوا إلى العالمية من خلال الإيمان بإله واحد واعتبار البشرية أسرة واحدة خلقها الله لغرض العبادة.

أما العولمة فهي تعنى القولبة، ووضع الناس في نموج واحد واختصارهم على منهج واحد. أما الإسلام فراعى الفروق الفردية الموجودة بين البشر وعاملهم على هذا الأساس. والخوف من العولمة ليس مقصور على المسلمين وإنما يشمل كثيرا من الدول بما فيها بعض الدول الغربية المشاركة في صناعة العولمة. ويتأكد خوف المسلمين من العولمة إذا تذكرنا أن الإسلام أصبح هدفا للهجمات الغربية وحقلا خصبا لتشويه وسائل الإعلام العالمية التي ربطت بالمسلمين والإسلام كل نقيصة مثل العنف والإرهاب والأصولية بمناسبة وغير مناسبة وذلك فان الموقف الإسلامي من العولمة ينبغي أن يتم بالحذر والتعامل مع معطياتها بوعي وبصيرة.

وعلى ذلك، فإننا لو أخذنا العولمة بأحسن معانيها سنكتشف أنها تتعارض مع مفاهيم إسلامية عديدة، فالعولمة بمظاهرها المتعددة تشكل تحديا للعالم الإسلامي في الوقت الحاضر وتنطوي على كثير من المخاطر التي تحتم التعامل معها بحذر والاستعداد لما قد ينتج عنها من آثار. ونظرا لاعتبارات عديدة، يجب الانتقاء وأخذ الإيجابيات وترك السلبيات حيث أن المسلم مطالب بالبحث عن المفيد النافع.

وعلى مستوى الأمة، نجد أن خير حماية لها هو السعي الحثيث الجاد لكي تتعامل الدول الإسلامية في احتياجاتها البشرية والمادية بحيث لا تحتاج إلى غيرها إلا في المجالات الضرورية جدا. ولابد للعالم الإسلامي من موقف تكاملي ومنهج واع في اختيار ما يناسبه ويتماشي مع تعاليم دينه، ورفض الغريب والمنبوذ، وتقديم البديل الإسلامي الكامل الجدير بإنقاذ البشرية وأخذها للعالمية الربانية وإنقاذها من العولمة المادية من خلال نموذج يلفت الأنظار وجدير بالتطبيق والتنفيذ لتحقيق مصلحة الإنسان وربطه بخالق الكون.

وإذا جعلنا مقاربة تاريخية فإذا ما تجاوزنا الاختلاف في تعريف العولمة وصح أن نتصورها على إنها تقليل أو اختصار وإلغاء أو رفع للحدود والقيود الطبيعية (المسافات المكانية والزمنية) والبشرية (القوانين والمفاهيم والبنيات المقيدة) وصولا إلى قدر أعلى من سرعة وحرية الانتقال والحركة والتفاعل على مستوى العالم، صح أيضاً القول بأن البشرية ظلت تعمل منذ فجر التاريخ في اتجاه يقود - ربما حتماً - إلى العولمة. فرحلة البشرية نحو تقييد المسافات المكانية والزمنية يمكن التأريخ لبدايتها ببداية اهتداء الإنسان إلى أو اختراعه وسائل النقل والانتقال بدءا بالدواب والمراكب البحرية ومرورا بالحمام الزاجل والسيارات والطائرات أو الاتصال الإليكتروني وانتهاء بالمراكب الفضائية والإنترنت.

وبالمثل فإن رحلة البشرية نحو إلغاء القيود البشرية (الاجتماعية) في مختلف المجالات بدأت منذ وقت مبكر من تاريخ البشرية. وعلى سبيل المثال: فإن توسيع الوحدة الاجتماعية/السياسية من الأسرة إلى القبيلة ومن القبيلة

إلى الدولة/المدينة، فالدولة والممالك والإمبراطوريات، فإنشاء المنظمات الإقليمية والدولية والتي تتمتع ببعض السلطة على الأعضاء ينطوي على خطوات متصاعدة نحو العولمة السياسية من خلال إلغاء أو تخفيف حدود الدائرة أو البنية الصغرى ودمجها في الدائرة أو البنية الأوسع. ويمكن رصد التطورات المماثلة نحو العولمة في مختلف المجالات بما فيها المجال الديني والذي يلاحظ فيه أن الديانات كانت تنحصر في دوائر صغيرة كالدائرة الشخصية والقبلية والقومية ثم تطورت إلى ديانات عالمية تبشر بحكومات عالمية وقد حققت بعضُها انتشارا عالمياً.

ويفيد التاريخ أنه بينما كانت رحلة العولمة تمر برفق ودون مقاومة تذكر في مسارها الطبيعي فإنها كثيراً ما توسلت بالقوة والعنف وواجهت الكثير من الرفض والمقاومة في مسارها البشري (الاجتماعي).

حقائق حول طبيعة العولمة:

وتؤكد المقاربة التاريخية للعولمة ثلاثة حقائق أساسية هي:

١- إن العولمة ليست من صنع الغرب أو الحضارة الغربية بل هي نتاج مساهمات مُختلف الحضارات البشرية عبر التاريخ. وإذا كان من المؤكد أن تسارع عجلة العولمة مؤخراً قد تزامن مع عصر الحضارة الغربية فإن ذلك لم يكن نتيجة لمساهمات الدول الغربية فقط وإنما شاركتها في ذلك دول أخرى ليس فقط المتقدمة منها، كاليابان في أقصى الشرق، وإنما بعض الدول النامية أيضا سواء بمواردها أو بعلمائها

٢- تبدو العولمة في حدها الإطاري أو البنيوي سُنة كونية لازمت التاريخ البشري منذ بدايته والأرجح أنها سُنة ماضية ليس من المتوقع أن تكف عن الاستمرار لرفض رافض أو مقاومة مقاوم.

٣- اختلفت المضامين التي سادت في مختلف مراحل العولمة باختلاف تصورات ومرجعيات القوى أو الحضارات الدافعة الرئيسية في المراحل المعينة.

الموقف الإسلامي:

يتحدد موقف الإسلام من مختلف وقائع وظواهر هذا الوجود تفسيراً (بيان ماهيتها أو تقييماً) بيان الموقف العملي تجاهها في إطار أصول دينية أهمها:

•جاء الإسلام لإصلاح البشر وتحقيق مصالحهم ومن ثم فإن المعيار الأساسي لتحديد الموقف القيمي / العملي من أي أمر هو مصلحة الإنسان، ويعبر فقهاء الإسلام عن هذه الحقيقة بقولهم حيثما كانت المصلحة كان حكم الشرع. ومع أن مصلحة المسلم تراعي بوصفه إنساناً إلا أنه ليس بالضرورة أن تكون المصلحة المرعية من قبل الإسلام هي تلك المصلحة التي يتمناها المسلمون.

•إن الإطلاق لله وحده ولا يكاد يُسلم لأي شيء سواه في هذا الوجود الإطلاق خيراً أو شراً وعليه فإن الموقف التقيمي لأي أمر من منظور الإسلام يستدعي الموازنة والترجيح بين الإيجابيات والسلبيات وغالباً ما يرتبط الحكم النهائي بشروط أو أحكام ثانوية تهدف إلى تعظيم الإيجابيات والتحوط ضد السلبيات أو- بتعبير الفقهاء - جلب المصالح ودفع المفاسد.

•العقل البشري المستهدي بالأصول الدينية وأصول الفقه (القانون) الإسلامي هو المُناط به تحديد حكم كل ما لم يرد فيه حكم صريح.

وإذا ما نظرنا للعولمة والتي لم يرد فيها حكم صريح وتباينت إزاءها مواقف الكُتَّاب من المسلمين وغيرهم، في ضوء الأصول أعلاه والمقاربة التاريخية السابقة تتضح مسلمتان أساسيتان:

• ترافق العولمة إيجابيات عبارة عن فوائد أو فرص للاستفادة (فوائد محتملة) كما ترافقها سلبيات عبارة عن أضرار أو أضرار محتملة. بيد أن من الخطاء إطلاق القول بأن العولمة هي السبب الوحيد لكل ما يرافقها من إيجابيات وسلبيات.

• لا تقتصر الإيجابيات ولا السلبيات على طرف معين وإن كانت تتفاوت الحظوظ منها. وتعد طريقة تفاعل الطرف مع العولمة إحدى العوامل الأساسية في تحديد ما يليه من إيجابياتها وسلبياتها المحتملة.

وفي وضع كهذا، فإن موقف الإسلام لا يكون الحكم بالحل أو الحُرمة ولا الحكم بالرفض أو القبول المطلقين وإنما يتمثل في دعوة البشر إلى التعاون

لمعالجة سلبيات العولمة وتعظيم إيجابياتها. ومن الواضح أن مثل هذا التعاون يتطلب قيام حوار جاد وندي بين سائر الحضارات والأطراف الدولية المعنية، وهو ما لن يتسنى بدون أن يتسامى أصحاب الحضارات على خبراتهم التاريخية السلبية ويتحرروا، وخاصة أصحاب الحضارتين الغربية والإسلامية، من المبالغة في الخوف أو التوجس من الآخر.

علاقة الإسلام بالعولمة:

إن موقع الإسلام في ظل هذا النظام وفي ظل ما أطلق عليه بالعولمة، يقترن الإسلام بالإرهاب والأصولية فالحركات الإسلامية أُلصقت بها هذه تهمة الإرهاب والعنف والتطرف والسؤال هو لماذا؟

إن النظر لواقع الإسلام اليوم يتنازعه رأيان:

الرأي الأول: يقول غير المسلمين أن هناك مشكلة ما تتسبب في اضطراب علاقات الإسلام مع الأديان الأخرى وأن هذه المشكلة تعبر عن نفسها في سلسلة من الصراعات.

الرأي الثاني: هو أن المسلمين يقولون أن الإسلام مستهدف وأن ثمة حرباً معلنة ضده وأن الإسلام في دفاعه عن عقيدته وفي صموده أمام سلسلة من الهجمات التي يتعرض لها يجد نفسه في حالة صراع دائم. فالمسلمين يرون أن المشكلة هي في نظرة الآخرين للإسلام، وغير المسلمين يعتقدون بوجود المشكلة في الإسلام.

وعلى أي حال بدأ الحديث عن الإسلام باعتباره ضمن دائرة صراع الحضارات وخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، فبعدما انتهى العدو الأول للغرب الرأسمالي ما لبث أن وجد عدو جديدا ألا وهو الإسلام. وهذا يظهر جليا في العديد من الكتابات، بل وحتى في الخطابات الرسمية وغير الرسمية، حيث قال هنري كيسنجر(وزير خارجية أمريكا الأسبق) في خطاب ألقاه أمام المؤتمر السنوي لغرفة التجارة الدولية: (بأن الجبهة الجديدة التي على الغرب مواجهتاها هي العالم العربي الإسلامي باعتبار هذا العالم هو العدو الجديد للغرب). وهذا، هو ما أكده الأمين العام للناتو "حلف شمال

الأطلسي" ويلي كلايس willy Claes الذي وصف الأصولية الإسلامية في خطاب رسمي له بأنها أعظم خطر راهن يواجه الحلف.

ومن خلال التصريحين السابقين يتضح لنا أن الإسلام مستهدف، خاصة أن بعض الجماعات والحركات التي تدعي الإسلام تتيح للغرب استهداف الإسلام. وعلى أي حال يجب أن نلاحظ أن العالم الإسلامي يعاني العديد من المشاكل والتي لابد أن تتفاقم في ظل العولمة إذا لم يوجد حل لهذه المشاكل.

حتى أننا نجد أن الأدبيات الغربية تجعل من الإسلام عدواً لها خاصة في ظل رأي هنتغتون في كتابه "صراع الحضارات" حيث يقول: بأن النظام العالمي السابق كان يقوم على صراع بين ثلاث قوى رئيسية: الولايات المتحدة الأمريكية، الاتحاد السوفيتي والعالم الثالث، أما النظام العالمي الجديد نظام ما بعد الحرب الباردة فيقوم على الصراع بين ثماني حضارات، وهي: الغربية واليابانية والكنفشوسية والهندوسية والأمريكية اللاتينية والأرثوذكسية والحضارة الإسلامية والحضارة الإفريقية. وهو يرى أن حروب المستقبل سوف تجد جبهات لها في نقاط التماس بين الحضارات وخاصة مع الإسلام وكل واحدة من هذه الحضارات على حده وهذه النقاط كما يراها: (المواجهة بين الإسلام والغرب من خلال الصراع بين البوسنة وكل من كرواتيا وسلوفينيا. المواجهة بين الإسلام والأرثوذكسية من خلال الصراع بين البوسنة وصربيا وتركيا واليونان وبلغاريا. المواجهة بين الإسلام والهندوسية من خلال الصراع الهندي الباكستاني. بمعنى أن الغرب وضع الإسلام في موضع العدو والمواجهة وفي الحقيقة ازداد عجبي بعدما قرأت كتاب (أحجار على رقعة الشطرنج) حيث يقول مؤلفه أن الاتحاد السوفيتي سينهار وبعدها ستبحث الرأسمالية عن عدو لها وسيكون هو الإسلام، والذي سيعمل على محاربته هو الصهيونية، عبر دولتها إسرائيل.

والغريب أن هذا الكتاب تم تأليفه عام ١٩٥٠، وهذا يعني أنه جاء بعد قيام إسرائيل بعامين فقط، وأنه جاء ليتحدث عن سقوط الاتحاد السوفيتي قبل حوالي أربعين عاماً، ولنتذكر أن الاتحاد السوفيتي عام ١٩٥٠ كان قلعة

عسكرية وعلمية دخل في حرب النجوم مع الولايات المتحدة الأمريكية وتفوق عليها في مرحلة من المراحل، فكيف استطاع الكاتب في ظل هذه المعطيات أن يتوقع كل ذلك؟.!

الإسلام في مواجهة العولمة:

أعتقد فعلا أن الإسلام حقا في مواجهة الغرب، والعولمة هي الصيغة المطروحة حالياً. وعلى أي حال، إن الإسلام كدين جاء يحمل طابعا عالميا على خلاف اليهودية التي جاءت مقتصرة على بني إسرائيل، جاء الإسلام كرسالة لبني البشر أجمعين قال تعالى ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [سبأ: ٢٨] فالإسلام في كثير من تعاليمه وفي الكثير من تطبيقاته وفي الكثير من ممارسات الرسول الكريم دلالة على الطابع العالمي: "لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى".

هذا يعني أن الإسلام له طابع عالمي وليس طابعا مُعَولماً، بمعنى أنه Universalism وليس Globalization حيث أن الإسلام وجهت له ضربات تتخذ شكلاً عالمياً معولماً:

١- وذلك بضرب قوات التحالف الدولي للعراق على إثر ما درج على تسميته الآن بالحالة العراقية الكويتية.

٢- محاولة طبع المنطقة العربية "الإسلامية" بالطابع الشرق أوسطي.

فخطوات عولمة العالم العربي بدت متسارعة جداً وذات هدف لا يستهان به هو عولمة المنطقة العربية لإبعادها وسلخها عن أي محاولة لأسلمتها. فبعد أن خرج العرب منهكين من أثار التحالف الدولي المعولم على العراق طُلب منهم للسلام في مدريد.

ومما سبق نخلص إلى أن الإسلام شيء والعولمة شيء آخر وفي هذا رد على من يدعي ترابطهما، لكن هذا لا ينفي أبداً كون الإسلام دينا عالميا لكنه يبقى في الحقيقة موقع وهدف للمواجهة في ظل النظام العالمي الجديد.

فبعد نهاية الحرب الباردة أصبح هناك العديد من التنظيرات حول شكل العالم الجديد وبزت جملة من السيناريوهات والتوقعات تطرح أشكالاً

متعددة مثل، فكرة صعود قطب آخر غير الولايات المتحدة، وتحول النظام إلى ثنائي القطبية، وأحياناً يتطرق الحديث إلى استحكام قطب واحد تمثله الولايات المتحدة، بينما هناك تصور ثالث يشير إلى التعددية القطبية بحيث تشارك فيه أطراف أخرى مثل أوروبا الموحدة والهند والصين. ومن العجيب أن هذه الاحتمالات التي تشير إلى قوى صاعدة لا تتضمن وجود أي دولة إسلامية كدولة رائدة فإذا كان هناك وفق التصور الذي يؤكد تحكم قطب واحد مهيمن على العالم، فهل يصبح كل العالم بذلك "دار حرب"؟.

ومن جهة أخرى، للعولمة العديد من التجليات السياسية والتي تتركز في رفع شعارات الديمقراطية والتعددية الفكرية واحترام حقوق الإنسان. هنا الإسلام لا يتعارض مع حقوق الإنسان، وفي الكثير من نصوصه ما يؤكد ذلك ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣]. إلا أن الإسلام لا يمكن أن ينسجم مع مصطلح الديمقراطية بالمفهوم الغربي، وهذا لا يعني أن الإسلام ديكتاتوري لكن الإسلام له خصوصيته فلا يمكن تأطيره وقولبته بالقلب وإطار معين وإلا كان هذا تقزيماً له.

فالإسلام شيء والديمقراطية شيء آخر، لأن الأخيرة تقوم على العلمانية والحرية التي لا سقف لها. أما الإسلام يؤمن بالحرية المنسجمة مع حدود الشرع، ولا علمانية في الإسلام فالسلطة الدينية هي الأساس وحتى أن السلطة السياسية تُعد مكسباً من مكاسب السلطة الدينية، لذلك الإسلام شيء والعولمة شيء آخر. وإن كان الإسلام في بعض جوانبه يلتقي مع العولمة مثلاً في حقوق الإنسان، إلا أن هذا الالتقاء لا يعبر عنه بالعولمة وإنما بالعالمية.

مخاطر العولمة على الإسلام:

لقد ذكرنا سابقا أن الإسلام يحمل صورة تم تشويهها اليوم في العالم الغربي حيث أن صورة الإسلام في الغرب تمثل صورة الإرهاب والتطرف والكثير من العنف إزاء هذه الصورة المشوهة يعاني الإسلام والشعوب الإسلامية العديد من المشكلات والتي بدورها تجعل موقف هذه الشعوب

ضعيفاً في مواجهة العولمة خاصة إذا ما علمنا أن أبرز مواقع الجوع الكبرى تقع في العالم الإسلامي، فمن أصل ٢٠٠ مليون شخص جائع في العالم هناك ١٧٣ مليون منهم من المسلمين موزعين على النحو التالي:

- ٧٠ مليون جائع في الهند.
- ١٢ مليون جائع في الصين.
- ٥٠ مليون في آسيا الجنوبية.
- ٢٦ مليون جائع في أفريقيا السوداء.
- ١٥ مليون جائع في الشرق الأوسط والشمال الإفريقي.

ومن جهة أخرى، فإن العالم الإسلامي يعاني من ضعف الإنتاج، فمثلا مدينة واحدة في ألمانيا دوسلدروف يقدر ناتجها المحلي ١,٨ مليار دولار ويقدر عدد سكانها ب ٢ مليون نسمة، وهذا الناتج المحلي يعادل تماما الناتج القومي لأكبر دولة إسلامية سكانيا وهي اندونيسيا التي تضم أكثر من ٢٠٠ مليون نسمة. هذا يعني أن العالم الإسلامي يعاني من العديد من المشاكل.

ويبرز الآن سؤالا مهما، وهو: هل يستطيع الإسلام والدولة الإسلامية مواجهة العولمة؟ وكيف ستتعامل هذه الدول مع الإسلام ومع العولمة في وقت واحد؟

وعلى أي حال، فإنه يتضح لنا مما سبق، أن الإسلام كحضارة جاء في مواجهة الحضارة الغربية والتي تتمثل بالعولمة، كما نجد أن الإسلام يتعرض للكثير من التحديات والمصاعب فالعولمة كظاهرة حضارية تقودها الولايات المتحدة الأمريكية تواجه الإسلام كحضارة وكأفراد إذ أن هناك محاولات الغزو الثقافي عبر استغلال الجامعات والمعاهد، فمثلا الجامعة الأمريكية في القاهرة طرحت الاستبيان التالي على أحد الطلبة الراغبين في الدراسة للحصول على درجة الماجستير:

- ما رأيك في إذاعة أذان الصلاة في الإذاعة والتلفزيون؟
- هل توافق على إذاعة بعض الأحاديث النبوية عقب الآذان؟

• ماذا نسمي المقاتلين في الشيشان؟ هل هم مناضلون أم إرهابيون؟

وفي الحقيقة إني أرى أن مثل هذه الأسئلة تحاول أن تضلل الفرد المسلم وتجعله يقع في دائرة الشك ويبتعد عن الإسلام دينا وحضارة ليقترب أكثر نحو العولمة والحضارة الغربية.

وتبرز خطورة الغزو الثقافي للحضارة الإسلامية في أن أبناء هذه الحضارة لا يقرؤون إذا ما قارنهم بأبناء الحضارة الغربية، كما أن أبناء الحضارة الإسلامية يتلقون الأبناء والمعارف ولا يصدرونها للعالم بعكس أبناء الحضارة الإسلامية في العصور السابقة الذين تتلمذ الغرب على أيديهم أما اليوم فنحن ننتظر أن يأتي الخبر وتأتي المعلومة إلينا ولا نقوم بصنعها.

وإذا نظرنا لسلبيات العولمة اقتصادياً فإننا نجد أن إحدى آليات العولمة وهي التكنولوجيا قد أدت إلى البطالة وبالتالي أصبح عندنا حوالي مليار عاطل عن العمل في العالم منهم ١٥٪ من الدول العربية الإسلامية.

وفي الحقيقة إن مخاطر العولمة ستزداد في ظل المجتمعات التي تعاني من الأمية والجهل فنسبة الأمية نسبة لا يستهان بها في العالم الإسلامي ففي موريتانيا حوالي ٦٢٪ والسودان ٥٣٪ وهذا يعني أن هذه المجتمعات غير مؤهلة لمواجهة النظام العالمي الجديد.

التحديات التي تواجهها الدول الإسلامية:

ويجب أن نلاحظ أن الدول الإسلامية تواجه العديد من التحديات أمام العولمة لكونها دولاً وليس لكونها تمثل حضارة الإسلام، وخاصة أن هذه التحديات تواجه منظومة دول العالم الثالث التي تقع ضمنها، إضافة إلى تحديات أخرى أهمها:

١- تحويل الاستثمار إلى مناطق العمالة الرخيصة، وهذا ما يؤدي إلى إغلاق المصانع المحلية وانتشار البطالة.

٢- سيطرة الشركات المتعددة الجنسيات على مقدرات هذه الدول.

٣- مساهمة تكنولوجيا المعلومات في ازدياد الهوة بين العالم الصناعي المتقدم والنامي الفقير إلى درجة التصدع الكامل لبنية المجتمع الإنساني.

٤- تخوف الدول النامية والأمم ذات الحضارات العريقة من ضياع هويتها الحضارية والثقافية وسيطرة نسق قيمي واحد من الحضارة الغربية بكل ما فيها من مثالب وإيجابيات.

ويزاد أثر هذه التحديات على الفرد المسلم بصورة عامة والعربي بصورة خاصة وذلك لأنه يعيش في ظل دول قطرية جعلت الانتماء إلى الوطن يحل محل الانتماء للأمة، ويستوعب في الوقت نفسه الانتماء العصبي، فأدى ذلك إلى خلق ما يعرف بإنسان (مأزوم الهوية).

فازداد "تشرنق" الفرد داخل عصبيته أو مذهبه، مما أدى إلى عدم قدرته على الاندماج في مؤسسات الدولة، كما ازداد ضعف مشاعر الانتماء للأمة وذلك بسبب انقطاع التواصل العضوي الحر بين أجزاء الأمة مع وجود ثقافة قطرية تحاول جعل الدولة وترسيخها "قومية".

لقد نجحت الدولة القُطرية منذ نشأتها وحتى الآن أن تثبت نفسها في مواجهة فكرة الدولة القومية ولكنها ضلت عالة على إرث الأمة ولم تستطع أن تؤسس هوية خاصة بها تجعل الفرد يحس بأنها تعبر عن خصوصية جماعته فظل يشعر بأن محددات هويته الثقافية والحضارية تتجاوز حدود هذه الدولة بينما انتماؤه الاجتماعي يقصر عن تلك الحدود وبالتالي وجد الفرد المسلم والعربي نفسه إنساناً مأزوماً في هويته وليس ذلك فقط بل يواجه عصر العولمة.

وفي النهاية أقول أن الحضارة الإسلامية تقبل بالحوار والجدل المنطقي ففيها من المرونة ما يجعلها قابلة للانفتاح على ثقافات العالم خاصة إذا كان التحاور يقوم على حرية التواصل والاحترام بين الثقافات العالمية، وأخطر ما يواجه القائمين على استنهاض الثقافة العربية الشعور بالدنيوية والاستسلام التبعي لمنتج الثقافة الغيرية والرضا بأن نكون مستهلكين لا منتجين وفاعلين في صناعة ثقافتنا ولو لم يكن للعولمة من أثر على الثقافة العربية الإسلامية إلا تحريك وإيقاظ الوعي الإسلامي فهذا يعد أمر هام.

ملاحظات مهمة:

١- تمثل العولمة إحدى الظواهر المعاصرة والتي تهدف إلى صياغة وأساليب خاصة.

٢- عولمة الأنشطة الإنتاجية وتحويل البلدان إلى أجزاء إنتاجية.

٣- هيمنتها على الأنشطة المالية والاستثمارية وتطورها بشكل سريع.

٤- لها أبعاد وآثار مما أضعفت الدول الإسلامية والتي تمثل أحد هموم العالم الإسلامي.

٥- أولويتها وواقعيتها على جميع المتغيرات الاقتصادية والسياسية والثقافية والإعلامية والتي تشكل تحديا على العالم الإسلامي.